الجمهوريّة التونسيّة
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة صفاقس
كلّيّة الآداب و العلوم الإنسانيّة بصفاقس

# بحوث جامعيّة

## RECHERCHES UNIVERSITAIRES
## ACADEMIC RESEARCH

### مجلّة في الآداب و العلوم الإنسانيّة

العدد 14 - 15
جويلية 2020

مكتبة علاء الدين
صفاقس-تونس 2020

بحوث جامعيّة

مكتبة علاء الدين
صفاقس-تونس 2020

République Tunisienne
Ministère de l´enseignement supérieur
et de la recherche scientifique
Université de Sfax
Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Sfax

بحوث جامعيّة

RECHERCHES UNIVERSITAIRES
ACADEMIC RESEARCH

### Revue de littérature et sciences humaines

N° 14 - 15
Juillet 2020

I.S.S.N: 1737-1007

مكتبة علاء الدين
صفاقس-تونس 2020

# بحوث جامعيّة

# RECHERCHES UNIVERSITAIRES

# ACADEMIC RESEARCH

الجمهوريّة التونسيّة

جامعة صفاقس

كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس

# بحوث جامعيّة

# RECHERCHES UNIVERSITAIRES
# ACADEMIC RESEARCH

العدد المزدوج 14 - 15

(جويلية 2020)

صفاقس-تونس 2020

# بحوث جامعيّة

دوريّة تصدر عن كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس

العدد المزدوج 14 - 15 جويلية 2020

المدير المسؤول:

محمّد بن محمّد الخبو

رئيس هيئة التحرير:

منير التريكي

أعضاء هيئة التحرير:

عقيلة السلّامي البقلوطي - محمّد بن عيّاد -
منير التريكي - محمّد بن محمّد الخبو - مصطفى الطرابلسي-
فتحي الرقيق - محمّد الجربي

---

كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس
صندوق بريد 11.68، صفاقس 3000 تونس
الهاتف: 74.670.557 (216+) - 74.670.558 (216+)
الفاكس: 74.670.540 (216+)
الموقع الإلكتروني: www.flshs.rnu.tn

---

مكتبة علاء الدين
صفاقس - تونس
الهاتف 52.611.668 (216+) - librairiealaeddine@yahoo.fr

---

ر.د.م.م: I.S.S.N: 1737-1007

# شكر

تشكر "إدارة بحوث جامعيّة" جزيل الشكر الأساتذة الذين أسهموا في تحكيم الأعمال العلميّة بالنسبة إلى العدد المزدوج 14 و15 وهم:

- عبد العزيز العيّادي،
- ناجي العونلّي،
- محمّد بن محمّد الخبو،
- مراد بن عيّاد،
- رابح النابلي،
- فتحي الرقيق،
- محمّد الجربي،
- الحبيب الجمّوسي،
- المبروك الباهي،
- حاتم عبيد،
- سلوى النجّار،
- منير التريكي،
- نور الدين الفلاّح،
- كمال إسكندر.

الدرس الافتتاحي بكلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس

الخميس 17 نوفمبر 2016

# في فكرة الجامعة

أ.د.عبد العزيز العيّادي

## مقدمة

اعترافي بالجميل للمجلس العلمي وللهيئات الأكاديمية وللزملاء الذين اقترحوا اسمي لهذا الدرس الافتتاحي وشرّفوني بثقة عزيزة عليّ لأحاورهم في مسألة تمثّل شاغلا ليس لصاحب الدرس وحسب وإنما لعموم الجامعيين. وأيّ درس! حديث عن الجامعة للجامعيين! فعمَّ سأحدّثهم؟ عن ذهاب مُلكهم وزوال مملكتهم وهم الذين استضافوني؟ عن المطامح والحزَن والموت؟ عن نبوءة بمشروع أعرف أني لست أقدرَهم على التخطيط له؟ عن عذابات –وما أكثرها– تمنعهم عزّة النفس من ترديدها وما هم بحاجة لأنكأها؟ عن صعوبات يومية يعلمونها وأعلمُها والقول فيها مكرور؟ عن الثقافة والبيداغوجيا وما أنا فيهما بعليم؟ بل لا صلة لي بصفة «المثقّف» أصلا –دون أن يعني ذلك معاداتي للثقافة بل أنا مدافع عنيد عنها–، مثقّفَ اليوم اللاهث وراء وسائل الإعلام والمذعن لمطالبها والخاضع لتهريج نقاشاتها والنقاشاتيون لا فكرة لديهم. فعمّ سأحدّثهم وكيف؟ دريدا وهو يقدّم درسه الافتتاحي في جامعة كورنال بأمريكا (إثاكا، نيويورك) كان يقول إنّها تجربة موجعة «أشعر فيها وكأنني حيوان مطارَد يبحث في الظلمة عن منفذ لا وجود له»[1]. ومع ذلك، في شروط عدم الإمكان، أعرف كيف أجد إمكانا تحت رقابة عيون فيها من الزمالة والصداقة والمحبة ما لا يَشُلّ لساني وما لا يكسر عزمي وما لا يُضلّ بصيرتي. وإني لعائد بعد قليل لعلاقة العين بالأذن وعلاقة التعلّم بالتعليم وإلى المحبّة ختاما.

1 Jacques Derrida, «Les pupilles de l'Université» in *Le cahier du collège international de philosophie*, N° 2, éd. Osiris, Paris, 1986, p. 12.

أحببت الجامعة طالبا ومدرّسا. طالبا لأنني تتلمذت على معلّمين فضلهم عليّ عظيم، ومدرّسا لأنني أحببت التدريس ودرّست كلّ ما اخترت، ولا يسعدني أن أغادر الجامعة مثلما فعل بيار ريكمان المكنّى بسيمون لايس[1] قبل تقاعده بستّ سنوات بحجة أنّ الجامعة كانت برجا عاجيا وأصبحت واقعا مقرفا. أما الواقع عندي فمحال ممكن، ليس الواقعُ مجموعةَ وقائعَ خامٍ بل هو تنوّع معانٍ تُنتَج وتُسأل وتُؤوَّل. الواقع انفطاريّ (démiurgique) بل لعلّ «صياغةً فكرة جديدة للواقع هي العمل الأهمّ والأعسر لزماننا»[2]. لذلك ما أنا بسبيله لا علاقة له لا بخبراء الإصلاح الجامعي ولا بالهيئات التي شكّلتها الدولة للغرض ولا بالجامعة لدينا دون سوانا ولا بالتأريخ لها (من أكاديمية أفلاطون (367 ق.م إلى 86 ق.م) إلى مكتبة الإسكندرية تأسست سنة 288 ق.م) ومن جامعة نانكان (Nankin) الصينية (288 م) إلى جامعة نالندا (Nalanda) الهندية (أواسط القرن الخامس الميلادي) ومن أكاديمية غنديشابور (Gundishapur) بإيران (القرن السادس للميلاد) إلى أشيكاغا غاكّو (Ashikaga gakkō) باليابان (القرن التاسع ميلادي) ومن جامعة الزيتونة (737 م) إلى مدرسة القرويين بالمغرب (859 م) أو الأزهر بمصر (972 م) أو مدرسة سلارن (Salerne) للطب بإيطاليا (القرن التاسع للميلاد)، وغيرها من القرون الوسطى إلى الجامعة الحديثة والمعاصرة) ولا بالنقلة من الجامع إلى الجامعة، نقلةً تظل محكومة بأفق «الأمّة» أو «الملّة» وبأفق الكلّي – الذي لا يفسّر شيئا بل هو ذاته محتاج للتفسير - وبالتالي بمنقلب ثيولوجي وإن تلبّس لبوس «تأويل فنومينولوجيّ»[3]، ولا بالجامعة العربية (لنضحك!). ما قصدت

---

1 Pierre Ryckmans, alias Simon Leys: بيار ريكمان المكنّى سيمون لايس هو كاتب وناقد أدبيّ بلجيكيّ، اهتمّ بالثقافة الصينية ودرّس بأكثر من جامعة، ولد سنه 1935 وتوفّي سنة 2014. والموقف مأخوذ من الخطاب الذي ألقاه يوم 18 نوفمبر 2005 في الجامعة الكاثوليكية في لوفان بعنوان: «فكرة الجامعة» (Une idée de l'Université) بمناسبة منحه الدكتوراه الفخرية (الشرفية)، وقد نشر هذا الخطاب **بالمجلّة العامّة** (*La Revue générale*)، العدد 12 لسنة 2005.

2 Wolfgang Pauli, Lettre à Fierz, 12 août 1948, cité par Basarab Nicolescu, *Qu'est-ce que la réalité?*, éd. Liber, Montréal, 2009, p. 9.

3 هذا المنقلب الثيولوجيّ هو الذي يشهده فكر الكثيرين ممّن يزعمون أنّهم حملة لواء الفكر عندنا فيطلقون على أنفسهم نعوت فلاسفة قرطاج وتونس ومؤمنيها –بانتمائهم إلى هيئات ومنظّمات كأنّ الكائنين خارج حدودها لا إيمان لهم لأنهم لا يأكلون من لقمتها– وهم لم

إليه هو «في الفكرة» بدءا و«في الجامعة فكرةً» منتهى، والقصد كلّه: **في فكرة الجامعة**، قصدا للجُمع وليس للمتفلسفة دون سواهم، قصدا لا يَعتاص فيه قول ولكن لا تتهافت فيه معرفة، قصدا وجهته الفكرة التي لا ترتدّ لرأي ولا تنهمّ لتواصل ولا تعبأ بنقاش ولا تنزعج من أذن ثقافتها لغو. لذلك لن أثقل عليكم بالذين كتبوا في الجامعة أمثال فيشته (Johann Gottlieb Fichte) وشلنغ (Friedrich Wilhelm Joseph Schelling) وشلايرماخر ( Friedrich Daniel Ernst Schleiermacher) ونيومان (John Henry Newman) وكوزان ( Victor Cousin) ورفاسون (Félix Ravaisson) وغيرهم كثير. فما نحن بصدده لا يحتمل عرضا وافيا لمواقف هؤلاء، وإذا صادفنا أن نشير إلى فكرة من أفكارهم فلأنّ فكرة الجامعة اقتضت ذلك، و**الفكرةُ لا تؤذي الفكرةَ**، وحدها الآراء تتآذى وتتشاتم ويقلّ حياؤها، أمّا الفكرة فحيّة، والحياء معرفةٌ وميتافيزيقا بهما تأتي الفكرة على مهل. الفكرة لا تأتي في الضجيج ووحده الرأي يصمّ آذاننا بضوضاء النقاشات التي لا تنتهي. الرأي لا ينصت حتى إلى ذاته، إنه ساكن يستوطن الوسط وهو وسط بين العلم والجهل مثلما حدّده الكتاب الخامس من **الجمهورية** (478 ج – 479 ب)، وحجة الرأي دوما هي أنه مهتمّ بحاضرٍ ما يحدث مع أنه يحجب عنّا الكثير ممّا نعرف وخاصّة ممّا لا نعرف. وهذا الذي لا نعرف هو رحِم الآمال والمخاطر.

---

يتخطّوا عتبة **علم الكلام**. ولكي لا أسترسل في توصيف حال موجعة بأسمائها ورموزها ووقوفها على عتبات السلطان منشِدة ومناشِدة، أكتفي بمحاورة موجزة وعادلة وغير سجالية تخصّ ما نحن بسبيله، وتتعلق بالجامعة. المنقلب الثيولوجي المتقنّع بالتأويل الفنومينولوجي هو الذي عمل في دائرته الأستاذ فتحي المسكيني في خاتمة كتابه **الهُوية والزمان**، دار الطليعة، بيروت، 2001. خاتمة الكتاب عنوانها: «الهُوية والجامعة، أو الفيلسوف مربيا»، وهي خاتمة تبحث في ما بعد الميتافيزيقي وفي الطريقة الخاصة بتعليم أنفسنا وفي احتراف فنّ الكلي. ونحن نقول لا وجود لما بعد الميتافيزيقي إذ لعلّنا لم ندخل الميتافيزيقيّ بعدُ، والطريقة الخاصة بتعليم أنفسنا استحالة أنطولوجية فضلا عن استحالتها التاريخية إذ الكلي النظري لم يحتضنه الجامع بل كان خارج الجامع وعلى هامشه بل وكان الجامع يلاحقه، والجامع ليس خصيصة عربية مثلما يذهب إلى ذلك صاحب الكتاب بل هو حيّز عربيّ إسلاميّ، وتغيير الصفة يغيّر كلّ استتباعاتها، وأمّا الكلي فصيغة خاوية للتعالي – وليس حتى للترنسندنتالي – الذي هجر العالم بل لعلّه لم يمرّ به أصلا، وحتى إن سلّمنا بحاجتنا إلى الكلي فإنه الكلي العرضانيّ المحايث وليس كليّ الكلياني المعبّر اليوم عن تحالف "الديمقراطي" النيوليبرالي والفقيه ورأس المال. أمّا سلطان الهوية فلا يُزهر إلاّ في لحظات النكوص والتراجع.

## في الفكرة

الفكرة قدرة على الانفصال أو الفصل (Chorismos). الكوريسموس هو التعبير عن قوّة السلبيّ وهو قطع وانزياح جذريّ، إنه مرادف لتجربة الحرية التي هي عدم الرضي بالمعطى، وعلامة الكوريسموس هي الفكرة. فالفكرة ليست استشباحا أو توهّما أو تصوّرا وإنما هي العمل المستمرّ على تجاوز الشيئية. والفكرة ليست موضوع تأمّل لأنها «مقيمة في الأبد» وفق عبارة تهكمية لبرغسون، بل هي «تجربة انعدام أهلية العالم الواقعي المتروك لذاته»[1]، الفكرة قوّة تفضية أو تماسف ومباعدة بالنسبة إلى الحاضر – ولم أقل الراهن– وإلى المعطى، هي قوّة سالبة للواقع الذي يفرض ذاته علينا بوصفه قوّة لا تُردّ. الفكرة فعل هجرة، وإدراكها على هذا النحو هو إدراكها اعتمالا حيّا متولّدا عن فعل التفكير الذي تُعنّفه قوى الخارج فيرتحل بوجيعته حدّ العودة بالخارق للزمن ليُنفِذه صلب الزمنية في مواجهة الغباوة والجهالة والقبح الذي يقف به الظن أو بادئ الرأي على عتبات السلطان. الفكرة هي فاجعة اللايقين الذي لا يصادر على معنى مشبَع وعلى ذاكرةٍ حافظة وعلى مسكوكٍ اطمأنّت إليه الجماعة وعلى مألوفِ لسانٍ لا يعرف كيف يندّ عن ذاته. لغة الفكرة لغة مهاجرة باتجاه المواقع المُلغزة، مواقعَ الحقيقة التي يلتقي فيها معنى اللغة ذاته بمعنى الكيان والكينونة بحيث لا تعبير عن معنى الكينونة إلاّ بهذه اللغة ولا لغة إلاّ وهي متشبثة في تأسيسية الكينونة التي دون أساس. الفكرة ههنا هي «المعنى العادل»، وبهذا الاعتبار لا يمكنها أن تكون وثوقية أو منهوكة وَهِنة، فتلك خصائص بادئ الرأي أمّا هي فميتا– دغمائية من حيث هي صيغة الفصل التي كنّا أشرنا إليها ولذلك يستحيل موتها مهما كانت أشكال الضغوط المسلّطة عليها، سواء تأتّت هذه الضغوط من نجاعة العلوم أو مردودية الاقتصاد أو اتهامات الدين أو عنف السياسة. قد تضيق عليها السبل فتكون شأنها شأن الفلسفة «أعدمَ من الكبريت الأحمر» وتكون من الغربة والغرابة «في حدّ لا يظفر باليسير منه إلاّ الفرد بعد الفرد، ومن ظفر بشيء منه لم يكلّم الناس به إلاّ رمزا»[2]. الفكرة– الانفصال هي تجربة العقل الذي لا ينسى جسده ولا مرورَه بالعالَم، عقلا

1 Jan Patočka, *Liberté et sacrifice*, trad. Erika Abrams, éd. Jérôme Millon, Grenoble, 1990, p. 95.

2 ابن طفيل، **حيّ بن يقظان**، تحقيق فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1980، ص 11.

يدرك الغياب وتعقّلُه مرتبط بما يفلت منه. فتجربة العقل وإن كانت طالعة من العالم فإنها تحيل كذلك إلى ما وراء العالم أو إلى ما قبله. وبالتالي فإنّ حضور الغياب هو «بالنسبة إلى الإنسان الواقعةُ الميتافيزيقية الوحيدة والأصلانية»[1]، واقعةً ترتادها الذاكرة والمخيّلة في ما وراء الآن والهنا دون التنكّر لصدى الحضور السنيّ، تذكّرا لما كان وتخيّلا لما يمكن أن يكون. فلِمَ حضور الغياب هو واقعة ميتافيزيقية؟ لأنه إعادة اكتشاف لما به نعاصر ولادة الأشياء مندهشين من غرابة انبثاقها واظّهارها نجما فارقا وإن كان يطلع من يبوسة الأرض. فالفكرة لا تعادي الأرض والجسد والحياة بل إنّ فكرة الحياة ذاتها ينبغي أن تكون فكرة حيّة تنهل من الحيّ وليس من الأشباحِ المنزوفة. لذلك كان فويرباخ يقول «لا تفكّر بوصفك مفكّرا، أي داخل ملَكَة انتُزعت من جملة الكائن الإنسانيّ الواقعيّ وعُزلت لذاتها. فكّر بوصفك كائنا حيّا وواقعيّا معروضا لأمواج محيط العالَم»[2]. بل لعلّ هذا الانتساب للعالم هو ما يجعل مهمّة الفكر عسيرة إن هو ارتاد ما ليس ميسورا، وليس ذلك اصطناعا منه وتكلّفا بهما يتظنّن على نفسه بالمهابة أو حيلة ومكرا بهما يقدّم المعتاد والبيّن في لبوس المعقّد والملغز والغامض، وإنّما هي «أشياء» الفكر تقتضي كدحه ومصابرته وهو يداور بين المداخل والمخارج مجبرة إيّاه على التقحّم والتجريب والتكرير لعلّه يحصّل بعض **فكرة**. لذلك عزيز هو فعل التفكير ونادرة هي الأفكار زمن غلبة الابتسار والظن ذي اليد الطولى وسيادة الحاضر الأبدي على ثقل التاريخ، وإنها لنكبة أن نحمل على محمل الجدّ الدعابة الديكارتية الواردة في مستهلّ **حديث الطريقة** والقائلة إنّ «السَّداد هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس».

إذًا، في الفلسفة، الأفكار ليست «أشباحا تطارد أشباحا»[3]، بل هي انبساط الفكر في دوام جَهده بحيث تكون «الأفكار الأعمقُ والأثرى هي في نفس الآن اتصال مباشر بمجاري الواقع التي لا تلتقي بالضرورة في نفس النقطة»[4]. إجمالا، يمكن تعريف الفكرة على أنها حركة الفكر المتجسّد والتي بها تتأتّى للإنسان مساءلة ما

1 Ferdinand Alquié, *L'expérience*, PUF, Paris, 1957, p. 72.

2 فويرباخ، **مبادئ فلسفة المستقبل**، تعريب إلياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، 1975، مبدأ 51، صص318- 319.

3 Henri Bergson, *La pensée et le mouvant*, Quadrige/PUF, 1993 (1re éd. PUF 1938), p. 221.

4 م.ن، ص 224.

يوجد بغية التشريع تأسيسيا لحركة الواقع المتحوّل بها في ذلك تساؤل الذات عن معنى وأهمية فعلها. والجامعة، نتيجة وجودها التاريخيّ الكائن واقعا، تتطلّب في كلّ عصر من عصورها التاريخية تحديد مفهومها وغايتها ووظيفتها. ومن حيث هي المحلّ الذي ينتج المعرفة وينشرها فالأحرى بها مساءلةُ شروط هذا الإنتاج والتوزيع وبلورةُ السبل التي تتعالق بها هذه المعارف وبها تنخرط في الفضاء الإقليمي والكوني وبها كذلك تهيكل علاقة الوعي بذاته وبالعالم[1]. فما الجامعة؟

## في الجامعة

ما الجامعة؟ نشير بدءا بوضعنا هذا السؤالَ إلى استحالة الفصل اليوم بين العمل الذي نؤديه وبين التفكير في الشروط السياسية المؤسَّسية لهذا العمل. ما «علة وجود الجامعة» اليوم؟ علّةَ وَوُجودَ وعلاقةَ الجامعة بالعلّة وبالوجود، وبالتالي بالسبب والغاية والضرورة والمسوّغات والمعنى والرسالة. أن يكون لشيء ما علّةٌ وجود معناه وجودُ مسوّغ لوجوده، أن يكون له معنى وغاية ووجهة وأن يكون قابلا للتفسير وفق مبدأ علّته[2]. ومبدأ علّة الجامعة هو **حرية** تدافع عن **العقل** وعن **الحقيقة** وعن الحقّ المشروع في **السؤال** والاقتراح دون شروط. والحرية التي نعني هي حرية ناسٍ أحرار وإلا استحالت إلى فظاظة والعسير فيها هو حضور **فكرتها** في تجربة هؤلاء، أو انتقاش الحرية- الفكرة في الحريات- الأحداث أو هو تكرير الحدوث الذي يمنع من تأقنم الحرية ومن الانقلاب على الحريات. فالحرية هنا حال من الوجود البِكْر ومن القيام بالذات أو هي مساحة زمنيّة-مكانيّة - والجامعة هي تلك- يقيم فيها

---

1 يذهب ألان رونو إلى أنّ الجامعة في مفهومها وغاياتها وتنظيمها تطالب في كلّ عصر من مسؤوليها والفاعلين فيها، رؤية واضحة حول شروط إنتاج وتطوّر المعارف وحول الكيفية التي تتمفصل وتترابط بها هذه المعارف في ما بينها. من بين العوامل التي من شأنها تمكين الجامعة من البقاء وفيّة للفكرة التي حرّكت إنشاءها، ضرورة الوعي الحادّ بالطرق التي تيسّر انخراط المعرفة - التي تنتجها وتنشرها- في روح العصر. إذا كان قدر المعارف هو المساهمة في هيكلة وإعادة هيكلة العلاقة المعيشة التي يقيمها الوعي البشري مع ذاته ومع العالم فإن المكان الذي يعمل على المطابقة بين إنتاج المعارف ونشرها لا يسعه إلاّ أن يدمج في نشاطه الاهتمام بإدراج المعارف صلب العصر. ( Alain Renault, *Que faire des universités?* (Bayard, 2002, Avant-propos, «Une autre philosophie de l'université».

2 انظر، Jacques Derrida, «Les pupilles de l'Université»، مقال مذكور، ص9.

الإنسان إتيقيا دون قهر أو غلبة ولكن أيضا دون أن يَستبدّ هو أو يَقهر وذلك هو الأعسر، والأعسر هو «تأبين الجبروت واعتراف الذات بحدودها وبالتالي تجاوز فردانية ضيقة. تأبين الجبروت هو اعتراف المرء بنقصانه وبحتمية نصيب الغيرية فيه ليكون هو ذاته»[1]. في كلمة، الحرية في الذات دون أن تكون ذاتية. أمّا العقل فليس عُقالا أو قيدا في صيغته العربية أو محكمة في صيغته الكانطية حتى وإن لم يكن محبوسا في تبعية عدم الرشد، أو مملكة للأرواح في كلّ صيغه الطقوسية، بل هو تكلُّمٌ وتفكيرٌ وتدبيرٌ (phronèsis) دون انفصال عن تخومه ودون أن يلتحق بصفّ خصومه. «العقل اقتدار لا نهائيّ: إنه ليس عاجزا إلى الحدّ الذي لا يكون فيه غيرَ مثل أعلى أو مجرّدَ ما يجب أن يكون ولا وجود له في الواقع بل يوجد لسنا ندري أين، في رأس بعض الناس مثلا»[2]. ليس لنا أن نفهم العقل بوصفه هيئة قائمة بذاتها ومكتفية بحميم اتساقها بل بوصفه قدرةَ تَيقّظٍ إزاء الواقع وبوصفه «الموقع الذي يصل فيه العالَم والواقع إلى المعقولية التي ليست مجرد معقولية للإنسان أو بالإنسان... بل هي معقولية ملازمة للواقع وللعالم مع تَطلّبها العقل الإنساني لتُقبل على ذاتها»[3]. وأمّا الحقيقة فهي هذا الذي يتبقى بعد زوال الاستشباحات والتوهّمات والمخاوف. وهي ليست عاملة في المعرفة وحسب أو في مجال المطابقة أو في تبعية لمركز هو الذات. بل لعلّ الأساسيّ ليس هو ما الحقيقة؟ بل لِمَ الحقيقة وما قيمتها؟ ولِمَ البحث عنها (إذ يبحث عنها أيضا العلماء والقضاة والصحافيون ورجال الأمن والمحققون) وتكريس جهود مضنية لتعقّبها؟ وما شروط إنتاجها؟ على هذا النحو، إذا كان «لحقيقةٍ ما أن تكون قابلة للحياة فعليها أن تتجذر في وقائع، لكن هذه الوقائع ليست غير المجال الذي تنبت فيه هذه الحقيقة وكان يمكن لأزهار أخرى أن تتفتق لو صادف أن حملت الرياح حبوبا أخرى»[4]. أمّا الحق في السؤال فإنما نعني به علاقةً محدَّدة للرغبة بالمعرفة، رغبةً تتعرّف على حقيقتها لتصل إلى موضوعها الحقيقي الذي هو

1 Antoine Garapon, « Justice et reconnaissance » in *Esprit*, n° 323, mars- avril 2006, p. 240.

2 Hegel, *La raison dans l'histoire*, trad. Kostas Papaioannou, Plon, Paris, 1965, p. 48.

3 Jacques Dewitte, *La manifestation de soi. Éléments d'une critique philosophique de l'utilitarisme*, Paris, éd. La Découverte, 2010, p. 231.

4 Henri Bergson, *La pensée et le mouvant*، م.م، ص 248.

الحقيقة. السؤال ليس مجرّد استفهام أو استنطاق يشي بقدرة مطلقة للذات التي تسأل بل وكْدُه التحيّر الذي لا يتشاغل بموثوق ولا يعوّل على ثابت بل هو وصلٌ فصليٌّ في الماوراء الإفراطي أو الشططيّ الذي يقتضيه اقتصاد الفكر العامل في كلّ الوجهات. فالسؤال أو التسآل ليس ملحقا أو ضميمة أو تدبيرا وسيليا نواجه به المناوئين أو ننتظر عنه إجابة تنهيه، أو لا يكون هو إلاّ ظلَّها، فذلك «ابتسار اجتماعيّ هدفه المعلن هو أن يبقينا أطفالا، وهو يحثنا دوما على حل إشكالات متأتية من مواقع أخرى، وهو يواسينا أو يلهينا بقوله لنا إنّا قد انتصرنا إذا عرفنا الإجابة: الإشكال كعائق والمجيب كهرقل. هو ذا مصدر صورة بشعة للثقافة نعثر عليها كذلك في الروائز، في تعليمات الحكومة، في مناظرات الجرائد (حيث يدعى كل شخص إلى الاختيار طبق ذوقه شريطة أن يتطابق هذا الذوق مع ذوق الجميع)»[1]. السؤال تصيُّرٌ من الخواء إلى الغياب، خواءً نخاف أن يبتلع كلّ شيء وغيابا نتوجّس منه بوصفه غورا لا تحفظه ذاكرة أو غرقا في ليل اللامعرفة. غير أنّ هذا التصيّر هو قِوام الفكر أو نَحيزته (substratum, epikaimenon) وهو لائط بالوجود الهيروغليفيّ الغليظ (massif). أمّا إذا كان للسؤال إجابةٌ فبدلالة الضمانة والالتزام بها في الضمانة من لطيف الوعد وبها في الالتزام من عهدة هي المسؤولية. فحقُّنا اللامشروط في السؤال بصفتنا جامعيين هو حقّنا في الدهشة محنةً واستئنافا لا يفتأ يفتح كلّ ما اعتقدنا أنه أُقفل وحُسم باليقين الأسطوري أو الديني أو العلمي. حقّ الجامعي في السؤال هو رغبته التي لا تتبدّد في الوفاق مع "المدينة" أو السلطان أو مناخ العصر أو دغمائية الحصائل أو عناد التعالم أو لجاجة السياسة، ولعلّ ذلك من الجامعة هو انفتالها الذي به تنحاز عن الطامع فيها والمدبر عنها.

هو ذا بإيجاز مبدأ علّة الجامعة: **حرية هي دستور العقل والحقيقة والسؤال.** ذلك أنّ هدف الجامعة وفق هذا المبدأ -مثلما يذهب إلى ذلك بيار ريكمان- هو البحث النزيه عن الحقيقة أيّا كانت نتائج هذا البحث، نشر المعرفة وتبليغها دون أيّ اعتبار نفعيّ مباشر. ولأجل ذلك تستلزم الجامعة وجود جماعة علمية لا يجب اعتبار أعضائها موظّفين بل هم الجامعة، وتستلزم ضرورة وجود مكتبة جيّدة، وتستلزم

1 جيل دلوز، **الفَرْق والمعاوَدة**، ترجمة وتقديم وتعليق د. عبد العزيز العيادي، دار طُوى، لندن، 2015، ص 302.

-وذلك بديهيّ- وجود طلبة (ليس بوصفهم حرفاء أو زبائن وإنما بوصفهم طلاّب علم ومعرفة)، وتستلزم حتما اعتمادات مالية[1].

هذا من حيث المبدإ، أمّا من جهة التاريخ فالأصل في الجامعة هو جَمَع ومنه الجَمْع وهو تأليف المتفرّق، ومنه الجميع والجماعة والمجموع والجامع والجُمّاع والمجمع والجُمُعة والإجماع... وهذه جميعها دالّة على الالتقاء والاتفاق والأُلفة والعزم. أمّا الجامعة فلم ترد في القواميس العربية الوسيطة إلاّ بدلالة الغُلّ (ج. أغلال) أي القيد، ولم تتخذ دلالة الشخص المعنوي والمؤسّسة القانونية لجماعة فكرية حاملة لثقافة عالمة تنتج المعرفة وتنشرها إلا في القواميس المعاصرة بل إنّ هذه القواميس لا ترقى إلى شمول التعريف الذي ذكرت من حيث اقتصارُها على القول إنّ الجامعة هي مجموعة معاهد علمية تسمّى كليات تُدرّس فيها الآداب والفنون والعلوم بعد مرحلة الدراسة الثانوية. أمّا في الألسن الأعجمية فلفظة الجامعة (*universitas*) استعملها اللسان اللاتيني بداية من 1214 تعبيرا على جماعة المدرّسين والتلاميذ (*universitas magistrorum et scolarium*) التي تخرج عن نفوذ المدرسة الدينية وتواجه عند الاقتضاء الاستبداد المَلكي والبابوي. إذًا، أكرّر أنّ الفكرة الأولى التي حرّكت الجامعة هي فكرة **الحرية** المناصرة **للحقيقة**. ورغم التحوّلات التاريخية تظلّ هذه الفكرة في بؤبؤ الجامعة. هذه التحوّلات عرفتها الجامعة الحديثة خاصّة من حيث الهيكلة والأغراض. في الهيكلة، كليات البحوث الأساسية أو ما نسميه اليوم بالإنسانيات هي عماد الجامعة وتليها رتبة وشرفا الكليات التقنية، بل إنّ التقابل بينهما بيّن، تقابلا بين رسيمة **المعماري** ورسيمة **التقني** وفق الصياغة الكانطية، نعني التقابل بين المنظومة العقلانية التي تعزّز الغاياتِ المشروعةَ للعقل والتي تشكّل كلاّ عضويا منتظما ينمو من الداخل تحت راية فكرة تشكّله **قبليّا** وبين التقني العامل أمبيريقيا أو خُبْريّا وفق رؤى وأهدافٍ عرضية واعتباطية وغير أساسية أي دون فكرة هي غاية العقل الرئيسة[2]. أمّا من

1 Pierre Ryckmans, «Une idée de l'Université», *La Revue Commentaire*, n° 114, été 2006, pp. 470- 471.

2 انظر، E. Kant, *Critique de la raison pure*, trad. A. Tremesaygues et B. Pacaud, PUF, Paris, 1975 (1re éd. 1944), pp. 558- 559.

ناحية الغرض، فالمهمات التقليدية للجامعة هي التكوين العلمي الجيّد، إنتاج المعرفة اللاغرضية بسبل البحث، تكوين نخبة المجتمع -ولنتذكّر مواقف الساسة عندنا في قولهم بعد الثورة: نكبتنا في نخبتنا، ونحن لا نجازيهم بالمِثْل، فمنزلتنا أرفعُ من منزلتهم ولسانُنا أعفُّ من ألسنتهم- وما يشكّل قوّة الجامعة هو تحقيق هذه المهمّات الثلاث متلازمة. هذه الأغراض يجملها هيدغر كذلك في خِدمات ثلاث: خدمة العمل، خدمة الدفاع، خدمة المعرفة، ولن تحوز الجامعة شكلها واقتدارها إلا إذا توحّدت هذه الخِدمات لتشكّل قوّة واحدة قادرة على رسم طابعها الفريد (هيدغر، **خطاب الجامعة**). هذه الخِدمات تقودها المعرفة، ذلك أنّ «**العالم الروحي** لشعب ليس هو الطابَق الإضافي لثقافة ما وليس هو بالأحرى ترسانة المعارف والقيم القابلة للاستعمال. إنه على العكس من ذلك القدرة على الاختبار الأعمق للقوى التي تربط شعبا بأرضه وبعِرقه» (هيدغر، **خطاب الجامعة**). لكنّ هيدغر أخطأ الأرض والشعب وحوّل العرق إلى رسالة تاريخية بـ«إجبار الشعب على اتخاذ صورة الدولة» في هيئتها الاجتماعيّة- الديمقراطية، نعني الدولة النازية التي كانت بها الكارثة التاريخية[1] وكان بها العمى الأوديبيّ لهيدغر. أمّا نحن فنعني بالقدرة تحويلَ القدَر إلى حرية وليس تحويلَ القدرة إلى قدَر نُخضع به غيرنا، ونعني بالأرض أرومة ومركزا ميتافيزيقيا، ونعني بالشعب، الأقلية الغائبة أو المفقودة التي ينبغي استحداثها لمواجهة الاستعباد والعار وما لا يُحتَمل.

إذًا، الجهد الأساسي للجامعة هو التعليم والبحث اللاغرضي، نعني إنتاج الحقيقة. ألا يعني ذلك أنّ الجامعة برج عاجي؟ الجامعة هي ذاك وما تلك بالسبّة نتّقيها من نكد الذين ربطوا النخبة بالنكبة، الجامعة اجتماعية وليست أليفة (sociale mais pas sociable) وتلك هي ضريبة مهمّتها. ومن هنا منزلتها المتحيّرة، يهاجمها المجتمع ويحرص على بقائها في نفس الآن، يراقبها وتهمّه حريتها من حيث أنّ رسالتها الأساسية والدائمة هي إنتاج المعرفة ونشرها بين طلاّب قادرين على تلقّيها وإعادة إنتاجها وفق مناهجَ وأساليبَ يطوّرونها في عالم سريع التغيّر، وهو ما يستدعي رؤية أنطولوجية للمعرفة وليس رؤية إبستيمولوجية

1 انظر، Giorgio Agamben, *La puissance de la pensée*, traduit de l'italien par Joël Gayraud et Martin Rueff, éd. Payot & Rivages, Paris 2011 (1re éd. Payot & Rivages, 2006), pp. 376- 377.

وحسب. ونعني بالرؤية الأنطولوجية الترحال في تعاريق الكينونة والعدم والصيرورة والمادّة والواقع، رؤية تساعد الطالب على أن يكون ما يدرس لا أن يتلقى ثم يتخلى بعد امتحانه عن كلّ ما حصّل حتى وإن كان ما حصّله هو اللامفكّر فيه، بل ذلك هو الموجع حقّا من حيث أنّ اللامفكّر فيه هو معنى منفيّ جهةَ الفكرة لا جهةَ بادئ الرأي وجهةَ الذاكرة التي ماهيتها نسيان هو يقظتها التي تُخرج الزّمن عن أطواره باتجاه آنٍ حيّ لا تُمزَّق فيه الكراريس والدروس بل تُثرى فيه الشخصية بما لم تكنه فلا يثقلها اليأس والوهن والإحساس بالسقوط بل تنزرع فيها الرغبة شأن انتشابها هي في الجسد.

بإيجاز، هي ذي الجامعة من جهة فكرتها مبدأ وتاريخا، هيكلة وأغراضا، فهل ما زال لهذه الهيكلة ولهذه الأغراض قدرة على الاستمرار؟

## واقع الحال: المعوّقات والتحديات

لقد قلنا إنّ المهمّة المباشرة للجامعة هي الحفاظ على المعرفة في كل الاختصاصات ورفعها إلى أعلى درجاتها مع نشرها. أمّا المهمّة التي تولّدت حديثا فهي خدمات الجامعة، نعني إدراج نشاط الجامعة صلب الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية. هذه المهمّة الثانية تكاد تنسينا اليوم المهمّة الأولى، بل إنها تقلب كليا ما كان ذهب إليه كانط في **صراع الكليّات** حيث كلية الفلسفة من حيث هي تجسيد لحرية الفكر والنقد «بإمكانها المطالبة بإخضاع حقيقة كلّ الدروس للامتحان». وبالتالي هل ما زال للإنسانيات أن تنقد وتقود وفق تصوّر كانط وفيشته وهيغل وشلنغ ومن بعدهم همبولت؟ الاهتمام كله موجّه اليوم للبحث العلمي والتكنولوجي وما يصحبه من ترقية اجتماعية وإدماج مهنيّ. فهل ما زال لنا أن نقول مع هيدغر إنّ «المعرفة ليست في خدمة المهن بل على العكس من ذلك: المهن تحتاج تحقيق المعرفة القصوى والأساسية»؟ (هيدغر، **خطاب الجامعة**). نقول، الناس يرون نفع ما هو نافع ولا يرون نفع ما هو غير نافع وبالتالي تحويل الجامعات إلى مدارس مهنية وتقنية بحجة انفتاح الجامعة على المحيط. ويا للمفارقة! كيف للجامعة أن يقودها المحيط وهو الذي لا فكرة له بل هو يضيق بالفكر وبالفكرة أصلا؟ أليس المحيط هو الذي يتوجب عليه أن ينفتح على الجامعة التي تؤسس وتشرّع وتفكّر وتقود؟ يذكر بيار ريكمان -في مقاله المذكور

آنفا- أنه في بداية الألفية الثالثة، جامعة أوروبية شهيرة اضطرّت باسم تقليص الميزانية إلى التخلي عن الجوهريّ في الجوهرة، عن هذا الذي لا يقدّم خدمة مباشرة للدولة، عن قسم الفلسفة (وكانت جهات كثيرة عملت على إغلاق قسم الفلسفة بهذه الكلية، ومنها من كان منتميا للجامعة. وقلنا حينها، أنحن نفتح أم نغلّق، نضيف أم ننقص، نعلّم أم نجهّل؟). جورج غابريال موغر كان كتب سنة 1818 أنّ «حذف الفلسفة كليا من دروس التعليم المدرسي سينتج عنه في تعليم الكليات العليا (الثيولوجيا والحقوق والطب والمدارس المختصّة) فراغ وظلمة هائليْن»[1].

الفراغ والظلمة حاصلان، وأغلب الجهد الجامعي موجّه اليوم إلى المركّبات التقنية- الصناعية- الاتصالية- العسكرية، بما في ذلك استثمار الترجمة واللسانيات وضروب التخييل فضلا عن توظيف علوم الاجتماع والتحليل النفساني في التدجين وفي الحرب الإيديولوجية. وحتى لو سلّمنا بإمكان استقلال الإنسانيات فإنّ طرق التوهين والإضعاف لم تعد بحاجة إلى المنع والحجر بل يكفيها أن تحدّ من الموارد ومن مدعّمات الإنتاج ومن سبل النشر والتوزيع، فضلا عن تصنيف المقبول واللامقبول من ضروب الخطاب وعدم تأهيل البحوث وعدم القبول بأنواع من الدروس، هذه وغيرها من المحاذير متعلّقة بممارسة وبنبل المسؤولية الأكاديمية، ينضاف إليها ما يحفّ بها من خارجها من ضغط الهيئات والمنظمات والإعلام وشروط الإنتاج ووسائله[2]. فالبحث العلمي يتمّ اليوم في مخابر خارج الجامعات وفي فضاءات يسميها اللفظ الأميركي Clusters تعبيرا عن مجموعة شركات ومؤسسات تشترك في نفس مجال الاختصاص، متقاربة جغرافيا، مترابطة ومتكاملة ومستقطبة للجامعة في مشاريع الذكاء واقتصاده. فكيف لبحث علميّ تحرّكه مصالح خاصة ومتنافسة بل ومتحاربة من أجل الإنتاج والمردودية أن يؤهّل ويكوّن ويثقّف بالمعنى الجامعي للتكوين العلمي؟ بل ماذا نقول عن جامعة لا تمنح شهادات وهي أرقى جامعة في أوروبّا مثل **مجمع فرنسا** (Collège de France)؟

إنّ التصوّر المقاولاتيّ للجامعة وسلعنة التدريس الجامعيّ وإعادة الهيكلة الليبرالية للجامعة وتحقير البعد البيداغوجي وخفض الشهائد العلمية إلى مرتبة مؤهّل مهني

1 Georges-Gabriel Mauger, *Vues sur l'enseignement de la philosophie*, éd. Deterville et Delaunay, Paris, 1818, p. 11.

2 انظر، «Jacques Derrida, «Les pupilles de l'Université»، مقال مذكور، ص 24.

وتحويل الطلبة إلى زبائن ودفعهم إلى اللامبالاة حتى إزاء المشكلات التي تخصّهم، معناه من جهة الطلبة على الأقلّ، غلق المنافذ عليهم باسم المهنة ومتطلّبات سوق الشغل. لكن المعوّقات والتحديات التي تواجه الجامعة لا تأتيها من خارجها وحسب بل من داخلها أيضا. لذلك من الضروريّ مساءلة مشكلات المشهد البيداغوجي وما يستتبعه من مشكلات الخطط الجامعية (ظروف الامتحانات، الحصول على منحة، لجان الدكتوراه، الترشح لخطّة جامعية، الولاءات العقائدية والإيديولوجية، الانتداب وفق المنفعة الاقتصادية أو الانتهازية السياسية... أين الدفاع عن الحقيقية في كلّ هذا؟) ومسألة التأطير التي يصل بها الطالب إلى التألّق (فكتور بروشار كان قال ساعة مناقشة أطروحة موريس بلوندال حول **الفعل** سنة 1893، في هذا العمل «جرأة لا مثيل لها منذ كانت الجامعة جامعة»)، والعلاقة بين الاختصاصات وريبة المتتسبين إليها بل وتحاسدهم وتباغضهم وتباخلهم وكأنهم غافلون عمّا كان قال مسكويه منذ القرن الرابع للهجرة: «إن متاع الدنيا قليل، فإذا تزاحم عليه قوم ثلَم بعضهم حال بعض، ونقّص حظَّ كل واحد من حظ الآخر. فأما العلم فإنه بالضد، وليس يَنقص أحدا ما يأخذه غيرُه منه، بل يزكو على النفقة ويربو مع الصدقة، ويزيد على الإنفاق وكثرة الخرَج، فإذا بخِل صاحب علم بعلمه فإنما ذلك لأحوال فيه كلُّها قبيحة، وهي أنه: إما أن يكون قليلَ البضاعة منه فهو يخاف أن يفنى ما عنده، أو يرد عليه ما لا يعرفه فيزول تسوّقُه عند الجهّال، وإما أن يكون مكتسبا به فهو يخشى أن يضيق مكسبُه وينقصَ حظُّه منه، وإما أن يكون حسودا فالحسود بعيد من كل فضيلة لا يودّ أحدا ولا يودُّه أحد»[1]. فضلا عن هذه المشكلات، تواجه الجامعة اليوم جملة من التحديات: العدد المتزايد للطلبة، الثورة الرقمية، التجديد المتسارع في إنتاج المعرفة، العولمة ومكانة الجامعة والوعي –أو عدم الوعي– بالرهانات وبالفضاء الجديد الذي ستتحرّك فيه، احتكار المعرفة والقسمة اللاعادلة للمعنى عالميا مع إعادة تقسيم السلطة الجيوسياسية على صعيد عالمي، التكوين عن بعد، التكوين المستمرّ، النشاط الثقافي، نقل التكنولوجيات. ماذا نحن فاعلون إزاء هذه التحديات؟ أيدفعنا ذلك إلى اللامعقول وإلى العدمية فنتّكئ إلى صخرة ونُسْلِم الروح؟

1 مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد)، **تهذيب الأخلاق**، تحقيق قسطنطين زريق، نشر الجامعة الأمريكية في بيروت، بيروت 1966، ص164.

لا، في تاريخها لم تقم الجامعة ضدّ العقل حتى وإن اعترف بجنونه، فلنا إذًا تعود مهمّة المقاومة والتجديد ملتزمين الكفاءة والصرامة المهنيتين في صِيَغ ما ندرّس وما نكتب – كتابة لم يعد الأمر فيها أمرَ دليل بوجهيْه بل أمر دلالة تداولية وأمر سينوغرافيا وكفاية (performance) مسرحيتيْن حيث تتآنى مكونات الكتابة في تنوعها السينوغرافي وكأن اللغة « تلعب» أخطر ألعابها في الخانات الفارغة، تأكل من زادها دون أن تكفّ عن تسمية الأشياء وجعلها تتكلم. كان فوكو يقول: «أكثر من واحد ولا ريب، مثلي يكتبون لكي يكونوا بلا وجوه. لا تسألوني من أنا ولا تطالبوني أن أظل من أنا: فتلك أخلاق الحالة المدنية التي تدير أوراق إثبات الشخصية. فلتتركنا [تلك الأخلاق] أحرارا عندما يتعلق الأمر بالكتابة»[1]. –، وفي تعاطينا مع الألسن – نَدخلها كالغرباء بمغامرة بذرية نصوصها شهادة مسير في ليل لا يقطع صمته إلا حُداء الحُداة تتصادى أصواتهم في الرُّكْبان فيفزع لها البشير والناعي ويفزع منها الصارمان اللذان كلاهما لا يغني: الغراب والذئب– وفي مشاركتنا كفاية في التكوين وتكوين أنفسنا بدءا وفي عدم الاكتفاء بالوصفات الجاهزة دون تكوين أساسي لا يمكّن حتى المختصين من فهم التطورات المستجدّة في اختصاصهم وفي مواجهة كلّ أشكال القبح التي تمنعنا من رؤية الجامعة فكرةً.

## في الجامعة فكرةً

ما الغرض من توصيف الحال؟ ضرورة إيقاظ أو إعادة تنزيل المسؤولية الأكاديمية. المسؤولية: إجابة واستجابة (respondere) لكنها أيضا تسآل في المعنى والإمكان والغاية والحدّ. لمن تعود هذه المسؤولية وهذا التسآل؟ للجماعة العلمية أو «جماعة الفكر» التي تسائل العقلي والقيمي والمبدئي والأصلاني وتعمل على استنتاج ما يمكّن منه هذا التسآل. هذا الفكر لا يوحّد جماعة أو مدرسة فكرية بالدلالة الرائجة، بل عليه أن يعيد التفكير في دلالتيْ الجماعة والمؤسسة وأن يفكك خيوط مكر العقل الأداتي وأن يتابع المسافات التي تتحوّل فيها البحوث اللاغرضية إلى مواضعِ تملّكٍ واستثمار من قِبَل برامجَ متنوّعةِ الأهداف والمقاصد. ذلك يتطلّب تكوينا جديدًا يهيئ لتحليلات جديدة تقوّم الاتجاهات وتختار من بينها على قدر المتاح[2]. وعليه، من

1 Michel Foucault, *L'archéologie du savoir*, Gallimard, Paris, 1969, p. 28.

2 انظر، Jacques Derrida, «Les pupilles de l'Université»، مقال مذكور، ص 27.

الضروريّ مواجهة توجيه الحياة الجامعية وفق قانون العرض والطلب واحتياجات السوق والحَرفنة أو المَهننة (professionnalisation). فمهمة الجامعة ليست الترويضَ الخارجيّ للأشخاص من أجل المهنة (هيدغر، **خطاب الجامعة**). لذلك من الضروري تصدّي الجامعة للإملاءات الخارجية وإلاّ فإنّ التعليم سيتغيّر مع كلّ تغيير للسلطة، وهو ما حاولته قوى سياسية عندنا بعد الثورة. في أقاليم روما القديمة كان ثمّة تمثال في كلّ إقليم يحمل رأس الحاكم العسكريّ، رأسا تُقطع لتعوّضها رأس الحاكم الجديد في كلّ مرّة، فلنعمل على أن لا تكون الجامعة هي الرأس المقطوعة وإن تغيّرت رؤوس الحكّام.

للجامعة أن تؤسس وتقود وتوجّه وتفكّر، أي أن تنتج أفكارا، تشغيل الفكر هو الحاسم فيها. زمن التفكير هو كذلك زمنٌ خاطف وإن تفكّر بشروطه. زمن التفكير زمن مغاير لزمن الربح والحسبان والنجاعة، زمن التفكير هو زمن الجامعة المبدعة، إنه زمنٌ – حدثٌ يهلّ لحظة الضيق وإن لم نرتقبه. يطلع هِلاّ مستهلاّ يجتهد به الفكر «كلّ الاجتهاد في تكميل نفسه ويستفرغ غاية الوُسع في طلب تمامه. فما أقبحَ النقص بالقادر على التمام والعجزَ من المستعدّ لنيل الكمال»[1] وفق عبارة سعيدة ليحيى بن عَديّ. إنّ السؤال في الجامعة فكرةً هو على الحقيقة في الكانية والآنية، سؤالا في توصيف وتصريف وتدبير كياننا كيف هو وكيف تصيّراته وما الذي يتهدّده بالتعليق أو بالتهديد أو بالتعديم وكيف نرسّخ الحقّ في المدافعة عنه وكيف اقتداره هو في فرادة كيانه وسياسة اجتماعه وفي استنهاض قوّته الغضبية لحظة عناد الجاهل وصولة السلطان وفساد روية أهل الزور وتسيّد من على أيديهم يتمّ خراب العمران. أنحن الجامعيين على ذلك قادرين؟ لست أدري. لكن تلك هي مسؤولية الجامعة بجامعييها وذلك هو قدَرها وقدَرهم. إلاّ أنّ الذي أعلم هو أنه لا اختيار دون اقتدار، ولا سيادة لضمير الغائب إلاّ بوهن المتكلِّم والمخاطَب، وأنه لا ذاكرة دون مقبلها، وأنه لا حقيقة إلاّ وهي تحرس نفسها بأسلحتها، وأنه لا لؤم لمن يتشرّر على الناس إلا لأنه ثمة قابعون على عتبة السلطان ينتظرون مِنّة، وأنّه لا رؤية للواقع إلاّ بتبعيده (وتلك هي الحفرة التي سقط فيها الفيلسوف وما زالت تُضحك الحمقى) حتى لا يرتدّ القرب عمى (وتلك حال مزاعم الواقعيين) حتى يكون للحوار جدواه. نجد في اليونانية Dia-legein وDia-logos بمعنى

1 يحي بن عدي، **كتاب تهذيب الأخلاق**، دار المعرفة للنشر، تونس، 2004، ص 130.

صيغة القول المعقول القائم في مسافة ما والعامل على اجتيازها والمرور عبرها، وهو ما يعني أن **الديا- لوغوس** هو المكافحة (confrontation) التي تقوم بين متحاورين في الفضاء الذي يفصل بينهم وعليهم اجتيازه. وإذًا، المسافة الفاصلة هي في ذات الآن مسافة واصلة يتخلى فيها المتحاورون عن نرجسيتهم الإيغولوجية أو الأناوية (égologique) ليكونوا قادرين على الإصغاء متنبهين ومنفتحين، ينزّلون صبرهم على الحقيقة في علاقات التمفصل والمعاضلة التي يعتمل فيها المعنى وكأنه آت من موضع قائم في ما وراء الأنا والأنت. بهذا المعنى «الحوار نادر وليس لنا أن نعتقد أنه سهل أو سعيد»[1] وفق عبارة موريس بلانشو.

فماذا نرى وماذا نقول نحن هنا، من الجامعة؟ نحن نجرّب، والتجريب ليس مرادفا للتلجلج وعدم التمكّن بل هو مداومة نظر في ما نرى وفي ما نسمع، فما يحتاجه من يجرّب هو صحة «متأتية مما رأى وسمع من أشياء ينهكه المرور بها ويعود منها بأعين ملتهبة وصماخ مثقوبة»[2]. التجريب هو الحاليّ الذي هو ما نحن نصير، إنه راهن مقبلنا وليس مستقبل تاريخنا. قد نرى ما لا يُرى لكنّ الأساسيّ هو أن نجعل الأشياء مرئية، رؤيةً تمكّن منها عين متحرّكة في محجرها ولو كانت ثابتة لكان ذلك منها شنيعا (أرسطو، **كتاب النفس**، 421 ب)، وتلك مهمّة غير يسيرة. وقد يصدر عنّا صوت جدير بالإصغاء، صوتا يُمتع ويعلّم أو لعلّه صوت التعليم الممتع، -والحبّ يدخل قلب من يصغي على لسان من يتكلّم مثلما يقول القديس أغسطين[3]- صوتا لا يبلّغ معلومة وحسب بل ينتج معرفة ويولّد دلالاتٍ ونُظُمًا مرجعيةً. «عالِما، فنانا، مناضلا وعاشقا، هي ذي الأدوار التي تطالب بها الفلسفة المتفلسفَ. ذلك هو ما أسميته **الشروط** الأربعة للفلسفة»[4] قال آلان باديو، وتلك هي الشروط الأربعة التي تطالب بها الجامعةُ الجامعيَّ، نقول.

الجامعة فكرةً هي لاتزمّن الجامعة، نعني ما به تعود على غير هيئتها الأولى وإنما بهذا الذي كانت به جامعة وستظلّ من صلبها تولّد جديدها، ليس

1 Maurice Blanchot, *Le livre à venir*, Gallimard, Paris, 1959, p. 214.

2 G. Deleuze, *Critique et clinique*, Minuit, Paris, 1993, p. 14.

3 انظر، Saint Augustin, *Les confessions*, trad. Joseph Trabucco, Flammarion, Paris, 1964, p. 79.

4 Alain Badiou et Nicolas Truong, *Eloge de l'amour*, Flammarion, Paris, 2009, p. 10.

بحاضرها الذي تكاد تبيع فيه روحها بخضوعها للإملاءات بل براهنها الذي هي بصدد كونه وهو الذي يعمّق المسافة بينها وبين «روح العصر»، إذ ليس من مهمّاتها الفوز بموافقة الناس وكسب رضا اللحظة الفورية، ولا يكون ذلك منها إلاّ بتخليها عن الخوف، والتخلي عن الخوف يؤدي «إلى العلاقة العقلانية والبنّاءة بين الاقتدار الأنطولوجي التأسيسي والفعل الجماعي للفرادات»[1]، والتخلي عن الخوف بخاصّة من«الفَظّ المتأنّق [الذي] لم يعد يكتفي باحتقار الفكر بل هو ينخرط اليوم في فعل مضادّ له، ساعيا إلى اقتحام مجاله، رافضا سعيه إلى المعرفة، مركّزا مذهبا يقول إنّ المعرفة الحقّ لا تنتمي إلاّ إلى الفكر المتحرّك، أي إلى ما ليس فكرا، مؤكّدا أنّ الإنسان المثقّف وحسب هو بحدْسه أقربُ إلى الحقيقة من كلّ الفلاسفة ومن كلّ العلماء بمناهجهم المزعومة. ثمّة اليوم هجوم حقيقيّ ضدّ الفكر»[2]. الجامعة فكرةً هي المقبل وليس المستقبل، هي ما يهلّ وإن لم يكن منتظَرا وليست ما يطلّ علينا برأسه وقد كان كامنا في دهاليز السلطان متحفّزا للانقضاض علينا لحظة تواتيه اللحظة. الجامعة فكرةً هي موضع الامتياز وذلك هو مبدؤها. امتيازها ليس انغلاقا على نفسها ونبلها ليس انفتاحا غيرَ مشروط على خارجها، بل هي في موقع التقالب والتحيّر تفعّل إيقاعها في طوبيقا كأنّها اللاأين وفي إيطوبيا تفعّلها **ميتافيزيقا عينية** تمكّن منتسبي الجامعة من يقظة دائمة لا تدجين معها.

## حصيلة

واحد من آباء الجامعة الحديثة كان يقول: «كرّموا المعلّمين؛ احترموا حرّيتهم؛ شجّعوا جهودهم، كافئوا همّتهم وسيتكوّن سريعا معلّمون جيّدون وأساتذة متميّزون. لكن هنالك حيث لا حرية لا تأملوا بتولّد موهبة. الرداءة وحدها هي التي تُقبل وتنمو في ظلّ العبودية»[3]. في ظلّ الحرية يمكن للجامعة

1 Antonio Negri, *Spinoza et nous*, traduit de l'italien par Judith Revel, Paris, Galilée, 2010, p. 140.

2 Julien Benda, *Du style d'idées, réflexions sur la pensée, sa nature, ses réalisations, sa valeur morale*, Paris, Gallimard, 1948, p. 254.

3 Victor Cousin, *Fragments philosophiques*, éd. Sautelet et Compagnie, Paris, 1826, p. 166.

أن توفّر للمجتمع حلولا بمدرّسيها وطلاّبها، حلولا لا تغلّق المنافذ عليهم جميعا، حلولا لو تخلّص المجتمع السياسي من ارتهانه ومن ضيق أفقه ولو توجّه وجهة حداثة مغايرة -آفاقها دون سقوف، ميزانها سكنٌ وليس تعوّدا، إيقاعها صور جديدة للزمن وللمواقيت لا يسوّرها انتصار الليبرالية ولا هيمنة السوق، نسترجع فيها أجسادنا وحياتنا وعالمنا ومخيالنا ونبدع فيها تنضيدات جديدة منتجة لذاتيات مولّدة لوقائع جديدة- لرآها قائمة قدّامه في النقل، في نتاجات التخييل، في الاهتمام بالشيخوخة، في علم الفلاحة، في التغذية، في التخطيط والتسيير، في المناخ، في جودة العيش، في أركيولوجيا التراث الذي ليس ميراثا حصيلته مذبحة، في جنيالوجيا الصناعة وتقريظ الأشياء الصغرى، في الألسن والترجمة، في دراسات الشغل، بل وحتى في التساؤل عن نهاية العمل، في البحث وفي توفير أسبابه ومقتضياته، في تحيين سؤال الإنسان وفكرته- فمنذ أكثر من خمس مائة سنه كان أرسموس يقول: «الإنسان لا يولد إنسانا بل يصبح إنسانا» (*homo fit, non nascitur*) والجامعة ليست مصنعا بل هي محلّ وفرصة للناس حتى يصبحوا ما سيكونون[1]- وتأكيد حقوقه خارج دائرة اللاهوت السياسي وإعادة النظر في مفهوم السيادة وغلبة اللاإنسانيّ. فـ«إذا كان ما زال ثمّة إنسانية في ما وراء اللاإنسانيّ، حينئذ ينبغي أن تكون ثمّة إتيقا ممكنة حتى في آخر عتبة ما بعد تاريخية يبدو أنّ الإنسانية الغربية [والعالمية جملة] غاصت فيها، مرحة ومندهشة في نفس الآن»[2]. من مقتضيات هذه الإتيقا، بل قوامها هو المحبّة القائمة في ما وراء الخير والشرّ (نيتشه، **في ما وراء الخير والشر**، § 153)، هي فرح لا يمنحه القبح. المحبّة قوّة في مواجهة الخبث والغباوة والتهافت، قوّةً تكثّف «في الدقيقة الواحدة أياما كثيرة» (ذلك هو ما قالته جولييت لروميو الذي أُجبر على مغادرة فرون (Vérone) وفي كلّ دقيقة باب ضيّقة يطلع منها المحال الممكن. المحبّة إنتاج للحقّ من حيث هي التزام **بالفكرة** والفلسفة تحمل المحبة في اسمها، محبّةً محمولة على سنان الموت. سقراط مات محاطا بالذين يحبّهم والذين أحبّوه، مجتمعين في قربان أسكلبيوس (وصية سقراط لكريتون تقديم ديك لأسكلبيوس). «يمكن للموت أن يمنع ما يحدث من الوصول إلى منتهاه لكنه ليس يمكنه أن يمنع

1 Pierre Ryckmans, «Une idée de l'Université»، مقال مذكور، ص 472.

2 Giorgio Agamben, *Nudités*, traduit de l'italien par Martin Rueff, éd. Payot & Rivages, Paris 2012, p. 78.

المعاودة. فالموت لا شيء إذا أحببنا ما يأتي بعدنا»[1]، ومن يأتي بعدنا إلى الجامعة ليعاود فكرتها وفق دستورها الذي ذكرنا.

الفيلسوف -والجامعيّ على العموم- كما مالك البيت لهم دائما إصلاحات للإنجاز (Wilhelm Busch). إصلاحاتٍ حرّةً، لذلك ليس لنا أن نزهد في الحرية اليوم لأنّنا قد لا نلتقيها غدا. إذا كانت السلطة هي ما يعيق أمل السياسة وإذا كانت السياسة تنهد إلى حرفها اللاسياسي الذي هو الحرية فإن ثقافة الزور والبهرج هي ما يعيق الفكرة والحرية كلتيهما. وعليه، فإنّ عدم الزهد هذا هو مبادأة الفكرة التي تحثّنا على البدء. البدء في تدبّر الواقع بشكل مغاير، البدء في مقاومة انغلاق المعنى، البدء في الانفتاح على التعبيرات الرمزية المغامرة حتى لا يتحوّل التأويل إلى تقويل، البدء في زرع الرغبة في العقل، البدء بإدراك أنه بمقدورنا أن نبدأ.

إجمالا أيها الجمع الكريم، المسألة مسألة أبواب كما يقول باشلار، وحبّذا لو كانت حكايتنا حكايةَ «كلّ الأبواب التي أغلقنا وفتحنا وكلِّ الأبواب التي نريد إعادة فتحها... عمَّ تَفتح وباتجاه من تَفتح»[2] هذه الأبواب؟ نأمل أن لا تفتح على بيت الطاعة.

1 Marcel Conche, *Analyse de l'amour et autres sujets*, Le Livre de Poche, Paris, 2011, p. 34.

2 Gaston Bachelard, *La poétique de l'espace*, Quadrige / PUF, 1989, p. 201 (1re éd. PUF, 1957).